محاضرات مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي (المحور الأول)

لطلبة: السنة الثالثة ليسانس علم الاجتماع

2022-2021

الأستاذ: زين الدين خرشي

مدخل عام:

يعتبر الرابط الاجتماعي أحد أهم المواضيع التي اهتم بها علم الاجتماع ،منذ نشأته، كونه أحد الأسس التي يرتكز عليها التنظيم الاجتماعي و المجتمع ككل، والتفكير في الرابط الاجتماعي لا يمكن أن يستنفذ أو أن يبلغ حده الأقصى، ذلك أن أشكاله، حواملة، محدداته، عناصره في تغير و تحول مستمرين، بل ان التفكير في الرابط الاجتماعي هو التفكير في المجتمع، مهما كانت الزاوية التي اخترناها للنظر والبحث فيه، إنه تفكير في الاجتماعي، السياسي، الثقافي، الاقتصادي....في الماضي وفي الحاضر.

يتأثر الرابط الاجتماعي بالبنية الاجتماعية المحيطة به، مؤسسات، قوانين، أعراف، تقاليد، قيم. يتأثر بنمط معيشة الفرد، طبيعة الاقتصاد، طبيعة النظام السياسي، كل هذه العناصر تساهم في إعطاء الرابط الاجتماعي شكلا معينا، وتساهم كذلك في تليينة أو شحنه بالعنف والصراع.

ما الذي يجعل المجتمعات تستمر في تواجدها؟ لماذا يبقى الأفراد مع بعضهم البعض؟ لماذا يواصل الأفراد رغم الاختلافات الموجودة بينهم في العيش بجوار بعضهم بعضا؟ ما الذي يجعل العيش داخل المجتمع ممكنا؟ كانت الاجابة الأولية و المقنعة سلفا أو مبدئيا لهذا السؤال، وما وراءه من تساؤلات تكمن في تبريرية تدّعي وجود روابط اجتماعية بين الأفراد، وعلاقات تجمعهم، وتبادلات توحدهم من الأصل الأزلي للوجود الإنساني.

وقصد الخروج من الطرح الفلسفي الغائي حاولنا إختزال إجابة التساؤلات السابقة في مفهوم واحد يحمل الكثير من الأبعاد في التحليل، إنه الكلمة المفتاحية لكل ما سبق ألا و هو الرابط الاجتماعي، فما هو هذا المفهوم؟ وما هي مساراته النظرية في علم الاجتماع بين الأمس و الحاضر؟

كانت اشكالية الرابط الاجتماعي في قلب السوسيولوجيا منذ الارهاصات الاولى لهذا الفرع المعرفي. بل إنه يمكننا القول أن التفكير في المجتمع كان منصبا أساسا حول الرابط الاجتماعي حتى وإن كان ذلك عبر مفاهيم مختلفة وتصورات مغايرة لما هو عليه اليوم.

منذ بداية دينامية النقد الاجتماعي في الغرب في القرن السابع عشر، كانت معظم الأسئلة التي تطرحها الفلسفة الاجتماعية والسياسية هي أسئلة حول الرابط الاجتماعي: كيف يمكن الوصول بالمجتمع إلى التجانس والسلم والتناغم؟ كيف يمكن تجاوز حالة الصراع والحرب بين أفراد المجتمع؟ ما هي حوامل العناصر التي يمكن أن يتأسس عليها السلم والتناغم الاجتماعي؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي اجتهد فلاسفة عصر التنوير في الإجابة عليها.

سنعمل على الإجابة على هذه التساؤلات بعد تقديم إحاطة مفاهيمية بالرباط الاجتماعي والمفاهيم الأخرى المتصلة به.

ما هو المجتمع؟

لا يتعلق الأمر بسرد مختلف التعريفات التي أنتجتها الأدبيات السوسيولوجية حول المجتمع، بل محاولة وضع هذا المفهوم الأساسي ضمن اشكالية الرابط الاجتماعي.

إن ما يجب الانطلاق منه في مناقشة مفهوم المجتمع هو فهم ما هي العناصر التي ليست بمجتمع، ويسود الاعتقاد بأنها كذلك. يجب الأكيد عند كل استعمال لمفهوم المجتمع إلى أن:

- إن الأسرة/العائلة ليست بمجتمع، وكذلك القبيلة والعشيرة والطائفة. إن هذه العناصر هي جماعات des groupes وجماعات عضوية des communautés. وهي البنى التي تطورت منها المجتمعات الحديثة.

  تسمى هذه العناصر بالبنى ما قبل المجتمعية أو حالة ما قبل المجتمع، وهو موجودة رغما عن الأفراد وسابقة عنهم، وتشتغل وفقا لروابط مفروضة عليهم.
- يهيمن على الرابط الاجتماعي داخل هذه الأبنية علاقات القرابة والدم.
- إن الفرد هو مفهوم حديث ارتبط بنشوء المجتمع وبالتالي فإنه لا يمكن الحديث عن الفرد كوعي تاريخي وذات سوسيولوجية في الأبنية العضوية الأولية. إن الحياة الاجتماعية تُعاش في هذه

الحالة بشكل جماعات وليست بشكل فرداني. ليس للفرد أي حرية في الاختيار وهو خاضع تماما لمنطق الجماعة.

سيكون المجتمع إذا هو: ظاهرة سوسيولوجية حديثة ارتبط ظهورها بنشأة الرأسمالية الليبرالية والسوق الحرة في أوربا. حيث أدى انهيار البنى العضوية التقليدية إلى نشوء تنظيم اجتماعي جديد قائم على الفرد كوعي وكوجود أفرزته التحولات العميقة التي طرأت على اقتصاديات أوربا الغربية ابتداء من القرن التاسع عشر.

يُفهم من هذا بأن المجتمع ليس عبارة عن تجميع لمجموعة من الأسر والعائلات، ولا مجرد اتحاد عددي إرادي أو قسري لمجموعة من الطوائف والقبائل والعشائر. ولكنه أيضا ليس تطورا ديمغرافيا للقبيلة ولا امتداد جغرافيا لها.

المجتمع هو ظاهرة حديثة تتكون من مجموعة من الأفراد الذين تربط بينهم مصالح تعاقدية واعية. الفدر هو الوحدة الأساسية التي يتشكل منها المجتمع، وبما أن الفرد هو ظاهرة رأسمالية حديثة، ظهر بتحرر الانسان المعاصر من قيود وجبر العائلة والعشيرة والقبيلة حينما سمح له السوق الرأسمالية بتحصيل قوت يومه وحده، وتحميه القوانين التعاقدية، فأن المجتمع بالضرورة هو ظاهرة حديثة وليس معطى طبيعيا.

أطروحات حول نشأة المجتمع الحديث وطبيعة الرابط الاجتماعي:

اهتمت السوسيولوجيا منذ نشأتها بمحاولة فهم وتفسير كيفية نشوء المجتمع الحديث. زكان ذلك تحت ضغط التحولات البنيوية العميقة التي طرأت على أوربا الغربية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. سمكن رصد عدة اطروحات أساسية في علم الاجتماع، قدمت تفسيرا لنشوء المجتمع.

1. الرابط الاجتماعي عند' إيميل دوركايم Emile Durkheim:

انشغلت سوسيولوجيا دوركايم بمحاولة الإحاطة بحالة الأنوميا الاجتماعية التي صارت تميز المجتمعات الرأسمالية، واستخدم ثنائيته الشهيرة لتفسير أشكال الرابط الاجتماعي وأنماط التضامن السائدة في حالة ما قبل المجتمع الصناعي وبعده.

عرفت البشرية تحولاتها الأساسية العميقة حينما بدأت تعرف تقسيم العمل بين أفرادها، وقد أخذ أشكاله الأكثر تطرفا بعد وصول الصناعة والتقنية في أوربا الغربية بدءا من القرن 17 إلى مستويات تطور كبرى.

يميز دوركايم بين المجتمعات الحديثة والمجتمعات التقليدية انطلاقا من شكل التضامن السائد في كل منهما. ويرى بأن التقسيم الاجتماعي للعمل هو الذي فتت أشكال التضامن التقليدية في المجتمعات التقليدية لينقلها إلى شكل جديد تسوده أنماط التضامن العضوي خيث علاقة الفرد بالجماعة تتحدد من الوظيفة التي أسندت إليه أو التي يشتغلها داخل منظومة تقسيم العمل. إن درجة تقسيم العمل هي التي تحدد لدى دوركايم درجة تعقد العلاقات الاجتماعية وشكلها، وكذلك نمط التضامن والرابط الاجتماعي السائد.

تتميز المجتمعات التقليدية بهيمنة النشاط الزراعي وببساطة الادوات المستعمله في ذلك، وكذا بدرجة تشابه كبير بين أفراد الجماعة، وهذا ما يحث أفراد الجماعة على التعاون فيما بينهم لإنجاز مختلف الأنشطة. يفرض نمط الحياة هذا تقسيما ضعيفا للعمل الاجتماعي ويكاد يختزل في التقسيم الجنسي للعمل بين أعمال شاقة للرجال وأخرى منزلية للنساء.

أما في المحتمعات الحديثة المعقدة فإن تطور الحياة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية وتعدد أشكالها، يفرض نشوء علاقات وروابط اجتماعية قائمة على التكامل، حيث يحتاج كل فرد للآخرين من أجل ضمان عيشه وتلبية مختلف حاجياته. درجة تقسيم العمل المتطور في سياق المجتمع الحديث/الصناعي فرضت وجود تخصص وظيفي بين أفراد المجتمع، وعليه صار سائدا التضامن العضوي بحيث يؤدي كل فرد دوره من خلال الموظيفة التي يشغلها في السوق والمجتمع.

2. الرابط الاجتماعي عند فرديناند تونز Ferdinand Tonnies:

ميز بين حالتين اجتماعيتين عبر عنهما بمفهومي: الجماعة Communauté والمجتمع Société. انكب تونيز على التمييز بين نمط الحياة في الحالتين وكذا طبيعة العلاقات بين أفرادها. تبنى لهذا الغرض مقاربة نفسية ودافع على ان الإرادة وتغير شكلها هو الذي أتاح الانتقال من الحالة الجماعاتية إلى الحالة المجتمعية. لهذا نجده فرّق بين نوعين من الإرادة:

- الإرادة العضوية: وهي تلقائية غير مفكر فيها، ويميزها التعلق القوي بالعائلة (رابطة الدم) والأرض (رابطة المكان) وبالممارسات الدينية والعقدية (رابطة روحية مقدسة). الرابط هنا قوي جدا

وواقع خارج الأفراد والشعور بالانتماء يتجاوز الشعور بالاختلاف والمصلحة العامة تتجاوز المصلحة الخاصة. إنها إرادة الجماعة مجسدة في الفرد.

- الإرادة المفكر فيها: ترتبط بالاختيار الذاتي للفرد، قراره هو وحكمه هو. وهي أساس حالة المجتمع. الرابط هنا يقوم على المصلحة الفردية ويأخذ الشكل التعاقدي ويمتاز بالتعدد واللاشخصية والنفعية.

3. بيير كلاستر Pierre Clastres:

يميز كلاستر بين المجتمعات البدائية والمجتمعات الحديثة انطلاقا من شكل السلطة السياسية الحاضرة في كل واحد منهما. وبالنسبة لموضوع الرابط الاجتماعي فإن هذه الأطروحة مفيدة كثيرا في فهم أشكال العلاقات الاجتماعية في ظل نمط معين من السلطة.

يرى كلاستر بأن المجتمع نشأ حينما ظهرت الحاجة إلى استعمال القهر للحفاظ على السلطة والنظام العام في المجتمع. فالمجتمعات البدائية كانت تعرف أشكالها الأصيلة من السلطة، لكنها كانت سلطة لا قهرية، أي لا تحتاج إلى اللجوء إلى استعمال القوة والعنف للحفاظ على نفسها.

يعود سبب عدم حاجة السلطة في المجتمعات البدائية للعنف إلى درجة التجانس الاجتماعي الكبيرة بين أفرادها، وهيمنة علاقات القرابة والدم عليها. لا يحتاج زعيم القبيلة والعشيرة إلى استعمال القوة لفرض سلطته، لأن الأفراد وبسبب صلة الدم بينهم فهم يخضعون له طوعا.

لكن في اللحظة التي تكبر فيها القبيلة أو العشيرة، وتضعف علاقات القرابة اكثر فّأكثر، تظهر هنالك نزعات تمرد وانفصال ومقاومة.

في اللحظة التي تنزع فيها السلطة إلى استعمال العنف، تبدأ المؤسسات في النشوء، ويبدأ عملية اصدار القوانين والقواعد المنظمة للسلوك. وبالنسبة لكلاستر فإن هذه هي لحظة نشوء المجتمع الحديث.

مفهوم الرابط الاجتماعي:

لا يمكن فصل مفهوم الرابط الاجتماعي عن الوعي الذي تمتلكه المجتمعات الانسانية حول نفسها، أما استعماله البومي الشائع فيمكن اعتباره تعبيرا عن تلك التساؤلات التي تبحث في ماهية المجتمع. إن سؤال الرابط الاجتماعي هو في الحقيقة تساؤل عن ما هو المجتمع؟ وعلى ماذا يقوم ويتأسس؟

هل المجتمع الذي يتكون من أفراد أحرار ومستقلين يمكن اعتباره مجتمعا؟ إذا كان الجواب بنعم، فكيف يتم ذلك؟ أي كيف يمكن اعتبار أفراد مستقلين (متعددين) مجتمعا (واحدا)؟ ألا يتنافى هذا مع التصورات الشائعة حول المجتمع والجماعة؟

منذ تأسيس علم الاجتماع والمحتصون فيه يحاولون الإجابة على هذه التساؤلات. لقد اهتم الرواد الاوائل منهم بمحاولة فهم أشكال تحوّل وتطور المجتمعات الانسانية. وكانت فكرة الرابط الاجتماعي لديهم تدور حول نظرة تاريخية للعلاقة بين الفرد وجماعة انتماءه من جهة، وظروف التحولات الاجتماعية من جهة أخرى.

لو لم يتحصل الفدر في المجتمعات الحديثة على مؤشرات وعناصر حماية كونية، فإنه كان سيظل حبيس انتماءاته العضوية الاولية. أي أنه لن يستطيع توسيع شبكة علاقاته الاجتماعية خارج الحدود الرمزية والمادية للقبيلة والعشيرة. هكذا كان حال المجتمعات التقليدية، أو حالة ما قبل المجتمع بتعبير علماء الاجتماع. إن تطور أشكال الحماية الكونية (القانون الوضعي) التذي تسهر على تطبيقه مؤسسات غير مشخصنة، هو الذي سيقود في نهاية الأمر إلى ما يعرف بدينامية الفردنة dynamique de l'individualisation، وهذه الدينامية هي التي ستقود بدورها إلى نشأة المجتمع بالمفهوم السوسيولوجي الحديث.

في المجتمعات الريفية التقليدية، يرتبط الأفراد أكثر بعائلاتهم وهويتهم العائلية، ليس فقط للاحتماء والأمان، ولكن أيضا لكسب الاعتراف والتقدير. في عالم الريف، تعتبر الهوية العائلية هي أساس الاندماج الاجتماعي.

أما في المجتمعات الحضرية المعاصرة، فإن الأشكال الرسمية المؤسساتية للاعتراف والتقدير والحماية أصبحت أكثر فردانية وتتأسس أكثر فأكثر على الخصائص الفردية بدل الخصائص والمؤهلات الجماعية التي ينتمي إليها الأفراد بشكل جماعاتي.

يتعلق الأمر في المجتمعات الحديثة بسيرورة تاريخية تضع كل فرد في المجتمع في موقع أكثر استقلالية بالنسبة إلى جماعة انتماءه الأولية. وهذه هي لحظة ميلاد المجتمع.

تستعمل عبارة الرابط الاجتماعي اليوم للتعبير عن أشياء متعددة ومختلفة، نذكر منها: الرغبة في العيش المشترك؛ الإرادة في ربط أفراد مشتتين بعضهم عن بعض؛ أشكال الدمج الاجتماعي؛ الطموح إلى تناغم أكبر وأعمق في المجتمع ....الخ.

إدراك علماء الاجتماع منذ البداية بأن الفرد منذ ولادته يجد نفسه في علاقات تبعية مع أفراد آخرين أو جماعات أخرى، وأن التضامن يتشكل خلال كل مراحل التنشئة الاجتماعية. إن الفرد مرتبط بالآخرين في المجتمع (أفرادا وجماعات) ليس فقط لضمان أمنه وحمايته من أخطار الحياة، ولكن أيضا من أجل إشباع حاجياته النفسية إلى الاعتراف والتقدير كأسس للهوية الحديثة.

يمكن مقاربة المجتمعات الحديثة والمجتمعات التقليدية، عبر دراسة حوامل الرابط الاجتماعي في كل واحدة منها:

حوامل الرابط الاجتماعي:

1. حوامل الرابط الاجتماعي في المجتمعات التقليدية:

يمكن تلخيصها في العناصر التالية:

-النشاط الاقتصادي (الزراعي) كعنصر أساسي و مهم في تنظيم علاقات التبادل و الإنتاج والتضامن بين الأفراد و الجماعات.

-هيمنة علاقات الدم و القرابة و أولويتها في كل أشكال التبادل الاجتماعي (المادي و الرمزي).

-يمثل التجانس الديني أهم حامل للرابط الاجتماعي وهو الأساس الذي يتم من خلاله صياغة الأعراف و القوانين المنظمة للعلاقات الاجتماعية، بل أحيانا تتطور هذه الأعراف لتصبح بمثابة دين للجماعة يكتسب قدسيته مع مرور الزمن.

2. حوامل الرابط الاجتماعي في المجتمعات الحديثة:

يمكن تلخيصها في ما يلي:

-المؤسسات الرسمية والقوانين المكتوبة

-السوق الاقتصادية الليبيرالية

-الفرد كموضوع حق و قانون.